حول ظاهرة إخوان الصفا
الفكر والعصر، والمجتمع

أ./ صادق قاسم *

هناك مجموعة اسئلة تبحث عن أجوبة وهي عسيرة ,لانها لا تجد الاجوبةالشافية التي تريح ضميرالباحث وتلبي طموحه :كيف ظهر ((اخوان الصفاء)) عصرهم ومجتمعهم , ومتى ظهروا ؟ ومن هؤلاء الذين سماهم عصرهم ومجتمعهم ، او سموا انفسهم ((اخوان الصفاء))، وكيف انتظمتهم ((جماعة)) واحدة بهذا الاسم وتحت هذا الشعار ؟ . ومن كتب تلك ((الموسوعة)) الشاملة المنسوبة الى هذه ((الجماعة)) بالطريقة التي ظهرت بها ((رسائل اخوان الصفا)) في عصر ومجتمع لم يعرفا – من قبل – عملا ((موسوعيا)) على هذا النحو من الشموخ والتنوع ؟ .

ان المصادر التاريخية لعصر ((اخوان الصفا))، او العصر القريب منه ، لا تقدم لنا اجوبة واضحة عن شيء من هذه الاسئلة . ان واحدا (1) من مؤرخي القرن السابع الهجري (الثالث عشر) يقع في حيرة من امر هذه ((الجماعة)) وامر ((الموسوعة)) المسماة باسمها، فكيف بالمؤرخ المعاصر ؟ اما القرن الرابع الهجري (العاشر) الذي يتبنى المؤرخون والباحثون المحدثون كونه عصر ((اخوان الصفاء)) فليس لدينا منه سوى مصدر واحد نجده عند ابي حيان التوحيدي (2)و هذا المصدر يفدنا ان ((الجماعة)) كانت في البصرة، ولها معرفة ((باصناف العلم وانواع الصناعة))، وانها ((تالفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا مذهبا .. وصنفوا خمسين

* أستاذ مساعد بقسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران .

رسالة في جميع اجزاء الفلسفة علميا وعمليا، وافردوا لها فهرست وسموه رسائل اخوان الصفا ء، وكتموا فيها اسماءهم وبثوها في الوراقين، ووهبوها للناس..))(3)

من خلال هذا المصدرنتعرف على بعض اسماء اولئك ((الجماعة))، وفقا لمعلومات التوحيدي وحده، وهم كما – يذكرهم التوحيدي – : ((ابو سليمان محمد بن معشر البستي، ويعرف بالمقدسي، وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وابو احمد المهرجاني، والعوفي , وغيرهم)) (4). ونعرف من التوحيدي ايضا، في هذا المصدر نفسه، ان زيدا بن رفاعة قد صادف هذه ((الجماعة)) اثناء اقامته بـ((البصرة زمانا طويلا .....فصحبهم وخدمهم)) .

ان هذه الشخصيات التي اخبرنا التوحيدي انها من ((الجماعة)) ومن مؤلفي رسائلها ((الخمسين))، لا نجد تعريفا لها في احد من المصادر التي لدينا سوى ما ذكره التوحيدي: في هذا المصدر نفسه ايضا، عن زيد بن رفاعة من ذكاء غالب وذهن متوقد، و(متسع في فنون النظم والنثر)، وبراعة في الحساب والبلاغة والتاريخ، ومن معرفة في المذاهب و(تبصر في الاراء والديانات). ولكن التوحيدي ينفي ان يكون لزيد بن رفاعة هذا مذهب معين او انتساب الى جماعة معينة.ذلك كما- يعلل التوحيدي-

(لحيشانه في كل شيء، وغليانه في كل باب) (5)لقد ورد هذا الكلام للتوحيدي في معرض اجابته عن سؤال سأله اياه ابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي .كان سؤال الوزير عن زيد بن رفاعة .و من خلال السؤال نفهم ان زيدا كان من خاصة الوزير حيث يحضر مجالسه ويناقشه بامور كثيرة تتعلق بالعلم والمعرفة ولكن الوزير لا يعرف مذهبه.ان الحوار بين الوزير وابو حيان يدل على ما كان يحيط بشخصية زيد بن رفاعة من غموض حتى عند المثقفين من معاصريه.و ابن سعدان الوزير من هؤلاء.كما نستدل من نص ابي حيان عن اخوان الصفاء ان هؤلاء المثقفين يجهلون امرهم حتى في العصر الذي يقال انهم ظهروا فيه. فهذا اذن وجه من الغموض ايضا حول احد شخصيات(الجماعة)

الذين ذكرهم ابو حيان. و- نجد اضافة الى ذلك- كلاما للمستشرق الالماني كارل بروكلمان ورد فيه : ((ابو سليمان حمد و(سماه الناس احمد فتركهم على ذلك) بن محمد بن ابراهيم الخطابي البستي(6))). وابو سليمان هذا- كما يصفه بروكلمان-((كان محدثا وشاعرا، وألف في فنون من علم الحديث نقدا وشرحا، وركن في اواخر حياته للتصوف(...) وتوفي سنة 386هـ /996 م وقيل 388هـ/998 م)). فهل هذا هو ابو سليمان البستي الذي عده ابو حيان التوحيدي من جماعة(اخوان الصفاء) ؟. فهنا تشابه في الكنية (ابو سليمان)، وفي النسبة(البستي) ،وفي التاريخ الذي يتفق الباحثون المحدثون انه تاريخ ظهور (الجماعة). ولكن هناك أيضا ما يدعو الى الشك في كون هذا(البستي) هو ذاك(البستي) نفسه. اولا، هذا اسمه (حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي) في حين ان ذاك هو(محمد بن معشر ويعرف بالمقدسي).ثانيا يذكر بروكلمان الكثير من المصادر العربية التي تتحدث عن هذا(البستي) دون ان يشيرواحد من هذه المصادر الى شيء يمكن ان يدل على مشاركته في كتابة رسائل(اخوان الصفاء) او في (جمعيتهم) ،و دون ان تشير الى كونه اقام في البصرة حيث نشأت هذه(الجماعة) كما راينا ابا حيان التوحيدي يقول ذلك.

ولدى المؤرخين والباحثين العرب المعاصرين صورة اخرى لهذا الغموض التاريخي حول هذه (الجماعة) .ينقل بعضهم الراي القائل بان هذه((الرسائل من تاليف الحكيم المجريطي القرطبي. وذلك انه حمل الى الاندلس(الرسالة الجامعة) لاخوان الصفاء انفسهم واملاها على تلاميذه محاضرات، فظنوا أن المجريطي واضع الرسائل:)(7)، ثم الرأي القائل بان الرسائل من وضع الامام جعفر الصادق (8).و في المقدمة التي وضعها احمد زكي باشا ينقل عن كتاب باسم جلاء العينين في محاكمة الاحمدين تاليف ابن الالوسي البغدادي، نقلا عن كشف الظنون وعن شرح عقيدة السفارينى ان(رسائل اخوان الصفاء)هي اصل مذهب القرامطة، وإن نسبتها إلى الإمام جعفر الصادق مقصود بها الترويج، وانها(صنفت بعد المئة الثالثة الهجرية في دولة بني بويه.املاها ابو سليمان محمد بن نصر البستي المعروف بالمقدسي، وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وابو احمد النهرجوري، والعوفي،

وزيد بن رفاعة. كلهم حكماء اجتمعوا وصنفوا هذه الرسائل على طريق الفلسفة الخارجة على مسلك الشريعة المطهرة)(9).ثم ينقل احمد زكي باشا عن فتاوى ابن حجر نفيه نسبة (الرسائل) الى الامام جعفر الصادق، وقوله ان مؤلفها مسلمة بن قاسم الاندلسي(10)395هـ/1005م.و مسلمة هذا هو نفسه المجريطي القرطبي الذي اشرنا اليه سابقا.

وبعد هذا نقرأ لباحث اسماعيلي معاصر(11) رايا آخر ينسب تأليف(الرسائل) إلى إمام الاسماعيليين عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق.فاذا علمنا ان الامام عبد الله هذا مات سنة 299هـ/911م, كان ذلك يعني ان تاريخ (الرسائل) يرقى الى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، في حين ان الراي السائد, قديما وحديثا, انها الفت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي(12)فاذا اخذنا برأي هذا الباحث الاسماعيلي نكون قد ارجعنا ظهور(رسائل اخوان الصفاء)الى قرن كامل تقريبا قبل زمنها التاريخي المعروف، وهذا امر غير مقبول عند النظر الى طبيعة الظاهرة التي تدل عليها هذه الرسائل.

حيال هذا الاضطراب في المسالة، يحكم منطق التحقيق التاريخي ان نرجع الى المصدر الذي هو اقرب المصادر صلة بالعصر المتفق عليه لدى معظم الآراء المتضاربة في المسألة بأنه عصر(اخوان الصفاء) و(رسائلهم)، اي القرن الرابع الهجري /العاشر.

نعني بهذا المصدر الذي تتوفر به هذه الصفة ابا حيان التوحيدي ونصه المثبت في كتابه

(الامتاع والمؤانسة) .و قد نقل القفطي هذا النص نفسه كما ورد عند التوحيدي حرفيا(13). وبناء على هذا المصدر والمصادر التي استندت اليه وهي ايضا اقرب منا الى ذلك العصر, لابد لنا ان نفترض حتى الان ان(رسائل اخوان الصفاء) ظهرت في القرن الرابع الهجري / العاشر، وان مؤلفي هذه الرسائل هم اولئك (الجماعة)الذين تلاقوا في البصرة على المبادى التي تشرحها موسوعتهم

هذه.بقي ان نرى العلاقة بين هذه الجماعة ورسائلهم وبين الاسماعيلية....فان الدراسات الحديثة (14) تكاد تتفق على وجود هذه العلاقة.و قد مر بنا ان احد الباحثين من الاسماعيلية المعاصرين يرى ان

(الرسائل) من وضع امامهم عبد الله بن محمد.فاذا رجعنا الى (الرسائل) نفسها، نبحث في مضموناتها، وجدنا علاقة واضحة بين المبادئ الفلسفية التي تاسست عليها جماعة

(اخوان الصفاء) واصول التنظيم المتبعة لدى الجماعة، وبين مبادى الاسماعيلية واصولهم التنظيمية.و لكننا نجد مجالا للقول بان هذه العلاقة لا تبلغ درجة التماثل الكامل بحيث لا يصح النظر الى الجماعة كانها تنظيم اسماعيلي صرف.فقد كان للاسماعيلية وجود سبق وجود(اخوان الصفاء) بزمن طويل، وكان لها تنظيم متقدم يعمل بنشاط ودقة وداب منذ ذلك الزمن، ويمارس بذلك تاثيراته في مجالات الكفاح السياسي والاديولوجي على بعض الحركات الثورية التي ظهرت خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، كحركة القرامطة بالدرجة الاولى.و اذا كانت حركة(الباطنية) قد تمثلت، خلال القرنين المذكورين، في فرق اخرى غير الاسماعيلية، فان المزايا التنظيمية التي كانت ابرز ما تميزت به الاسماعيلية، قد مكنتها ان تنفرد ،دون سائر الفرق(الباطنية) بحيوية الحركة والتاثير واستمرارية الصمود اكثر من جيلين.و قد شكلت هذه المزايا عاملا من عوامل نجاح الدعوة الفاطمية في الوصول الى مركز الحكم.و لكن التفرق الداخلي الذي اصاب الحركة الاسماعيلية, ادى بها الى التشتت بعد ذلك كحركة منظمة.ومن هنا فان ظاهرة

((اخوان الصفاء)) اتخذت شكل انعكاس مباشر، من حيث وضعها التنظيمي، لما اكتسبته حركة الاسماعيلية من تجربة تنظيمية ناجحة .ذلك لان هذه التجربة قد وضعت امام الحركات ذات الاتجاهات الثورية، في المجال الفكري والاديولوجي، نموذجا تاريخيا للممارسة والتطبيق العملي كان من قوة التاثير والجذب بحيث لم تقتصر انعكاساته فيها على الجانب التنظيمي، بل شملت المبادئ

نفسها كذلك.و يتبلور استنتاجنا هنا بان الوجه((الاسماعيلي)) الذي يظهر على ((اخوان الصفاء)) لا يعطي العلاقة بينهم وبين الاسماعيلية اكثر من هذه الصفة الانعكاسية الموضوعية . فإننا نعتقد بأنه كان لاخوان الصفاء وجود مستقل عن التنظيم الاسماعيلي, رغم ما نراه من نقاط الالتقاء الكثيرة بينهما. ولكن وجودها المستقل لا ينفي ان يكون لها نوع من الارتباط المبدئي او المذهبي بأصول إسماعيلية . ومنشا اقتناعنا بهذا الراي هو انه ليس في المصادر التاريخية المعاصرة لاخوان الصفاء، ولا في المصادر القريبة العهد بعصرهم، وثائق تتحدث عن نشاطهم كجماعة منظمة ولا عن استخدام الاسماعيلية((رسائل اخوان الصفاء)) في نشاط الدعاة الاسماعيليين المنتشرين في كثير من بلدان العالم الاسلامي حينذاك.و انما كل ما نعثر عليه من وثائق بهذا الشان ما نجده عند ابي العلاء المعري من اشارات في بعض اشعاره ربما تعني((اخوان الصفاء)) هؤلاء بالذات، وربما لم تكن تعني غير المعنى الاخلاقي من كلمة((اخوان الصفاء)) حيث يقول :

و اذا اضاعتني الخطوب فلن ارى لوداد اخوان الصفاء مضيعا(15)

و هناك وثيقة واحدة يمكن ان تلقي بعض الضوء على مسألتنا، وهي ما ذكره المؤرخ ماكدونالد في كتابه ((تطور اللاهوتية الاسلامية)) من انه حينما استولى المغول على قلعة الموت (16) وجدوها غنية برسائل ((اخوان الصفاء)) (17). ولكن هذه الواقعة لا تتجاوز الدلالة على تلك الصلة التي اشرنا اليها بين ((الاخوان)) والاسماعيلية .فليس ما يمنع ان يكون((لاخوان الصفاء)) وجودهم المستقل مع كون رسائلهم احد المراجع النظرية لفرق الاسماعيليين, لاشتمالها على اصول مبادى المذهب. ولعله مما يدل على استقلالية ((الاخوان)) عن التنظيم الرسمي للاسماعيلية ما يشار اليه في بعض المصادر والمراجع من تمتعهم بنوع من الحرية النسبية في عهد دولة البويهيين (18) مع ان الاسماعيليين كانوا خصوما للدولة العباسية.

ان الدلائل التاريخية كلها ترشدنا ان الوضع التنظيمي ((لاخوان الصفا)) لا يتعدى نطاق ((الخطة)) التنظيمية المكتوبه في((الرسائل))، اي انه وضع نظري محض، رسموه لانفسهم بصورة مجردة كانعكاس للتجربة التنظيمية الاسماعيلية الناجحة . اما النشاط العملي للاخوان فقد انحصر في العكوف على التاليف الموسوعي الذي يبدو انه استغرق وقتا طويلا استنفذ كل طاقاتهم بحيث لم يستع لهم ان ينصرفوا الى تحقيق

((الخطة))المدونة في ((الرسائل))، والا فلماذا لم تظهر اثار لنشاطهم يتحدث عنها المؤرخون في عصرهم او العصور القريبة منه ،لو ان هذا النشاط كان موجودا بالفعل؟ لماذا لم يتحدث عنه الشهرستاني, او ابن خلدون مثلا ؟ ولعل النشاط الوحيد الذي نجد من يتحدث عنه في عصرهم ,خارج نشاطهم التاليفي , هو ما يذكره ابو حيان التوحيدي في معرض حديثهم عنه, الذي سبقت الاشارة اليه, من انهم صنفوا خمسين رسالة ... وكتموا فيها اسمائهم, وبثوها في الوراقين(النساخ) ووهبوها للناس...). فهم اذن كانوا يطمحون الى اشاعة معارفهم الموسوعية في المجتمع بعد ان بذلوا ذلك الجهد العظيم في التدوين والتصنيف, وكان وراء طموحهم هذا هدف مرسوم دون شك سنوضحه بعد قليل . ولابد انهم بذلوا جهدا اخر لبث هذه المعارف عن طريق الوراقين, ثم لا نعرف نحن – كما قلنا– نشاطا غير هذا لنشرها وتعميمها في جماهير المجتمع .

اما كيف اختاروا لتنظيمهم اسم ((اخوان الصفاء وخلان الوفاء)) فقد يكون صحيحا ان ذلك كان استرشادا بما ورد في كتاب (كليلة ودمنه) ترجمة ابن المقفع من هذا التعبير((اخوان الصفاء)) في باب الحمامة المطوقة (19). وقد جاء مضمون هذا الاسم تعبيرا عن الواقع الذي الف بين اشخاصهم وجمعهم عمل مشترك وعلى هدف لهذا العمل مشترك ايضا .و في حديث ابي حيان التوحيدي السابق الذكر تلميح في هذا المضمون (20).

نسمح لانفسنا باستخدام لغة عصرنا هنا لان مضمون هذه اللغة موجود بالفعل في عمل((اخوان الصفاء)) الموسوعي اي في (الرسائل) التي نسمح

لانفسنا ايضا بان نصفها وصفا معاصرا، فنقول أنها عمل(برنامجي) يكاد يكون متكاملا , رغم افتقاره الى عنصر التنسيق التاليفي اولا, والى عنصر التدقيق العلمي ثانيا.

ان صفة العمل (البرنامجي) تظهر بجلاء في مجمل التركيب العام للرسائل الخمسين والرسالة الجامعة التي تتوج هذا العمل الكبير وتبلغ به النقطة القصوى لاستراتيجية الجماعة . بل يصح لنا القول بان الخمسين رسالة الاولى استوعبت (الخطة التكتيكية) في حين ان(الرسالة الجامعة) استوعبت ما تضمنته (الرسائل) بجملتها من الخطة الاستراتيجية الشاملة. فماهي استراتيجية الجماعة اولا ؟

نعود هنا مرة اخرى الى النص السابق لابي حيان التوحيدي المعاصر لتلك الظاهرة العلمية –الفلسفية –الايدولوجية التي سميناها ظاهرة ((اخوان الصفا ء))

يقول التوحيدي في معرض حديثه عن (الجماعة)(... وذلك انهم قالوا ان الشريعة قد دنست بالجهالات, واختلطت بالضلالات, ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة, لانها حاوية للحكمه الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية. وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال)(21).

هذا الكلام من مثقف كبير عاش تجربة عصره بمرارة وقلق, وشارك في اغناء ثقافة العصر نفسه الذي هو عصر((اخوان الصفاء)) بعينه– هذا الكلام يقوله التوحيدي بعينه, لم يكن ليقوله الا وهو يعلم من امر(الجماعه) وامر العصر ما هو واقع, او ما هو احدى صور هذا الواقع. وفي رسائل الجماعه ما يدعم ذلك ويؤكده كما سنرى .

(الاخوان) ياخذون بفكرة(الخطيئة الاصلية) لبني الانسان منذ ادم عليه السلام على نحو ما تذكره الكتب السماوية . ولكنهم يرون اي (الاخوان) – ان الانسان خرج من ربقة هذه (الخطيئة) بعد توبة آدم وامتثاله لامر الله . ثم

جرى على ذلك من استخلف في الارض بامر الله بعد آدم, وجعل وصية الله هذه, كلمة باقية في عقبه .

و هذه(الكلمة) هي((خلافة النبوة ومملكة الرسالة والامامة . فمن تعدى هذا الامر

(الالهي) وخالف هذه الوصية وطلب ان يكون خليفة الله تعالى ليدبر خلقه بسعيه وحرصه فانه لا يتم له, وان تم وقدر عليه فانما هو خليفة ابليس, لانها حيلة ومكيدة وخديعة وتعد وغصب وظلم وعدوان وخذلان وطغيان وعصيان .)(22)

فلننظر في هذه الصفات الاخيرة المتلاحقة ,المنحدرة باندفاع غاضب كالسيل . ولننظر في الاواخر منها بخاصة (... غصب, ظلم ,عدوان ,خذلان, طغيان, عصيان) .ليس يحتاج المرء الى جهد غير عادي, لكي يكتشف مرمى هذا الهجوم اي من يقصد

((الاخوان)) بهذه الاوصاف السلبية المثيرة . فانه لمن الواضح ان الذي تم له ان يكون ((خليفة)) بتعدي امر الله تعالى ومخالفة وصيته لادم, فاصبح بذلك ((خليفة ابليس)) انما هو من يتسمى ب ((الخليفة)) في عصر ((اخوان الصفاء)) وهو ليس ((خليفة)) واحدا بعينه بل هو كل من يتسلم منصب ((الخلافة)) الرسمية في الدولة الاسلامية المعاصرة لهم (الخلافة العباسية) .

يتوضح هذا الهدف لدى ((اخوان الصفاء)) في امكنة اخرى من ((الرسائل)) حين هم يتعرضون للعباسيين بتعابير شفافة فيصفونهم بانهم قتلوا ((الاولياء واولاد الانبياء))(23)، وحين هم يكثرون من التعريض بالسلطان الجائر, ويندون بمن ينصب خليفة لله في ارضه, ويملك رقاب الناس ويبسط يديه في البلاد لينصف المظلوم من الظالم, فاذا به يصبح هو الظالم وهو المتعدي على الضعفاء والمساكين (24)....ثم حين يضعون – بطريقة ((التنظير)) العلمي الفلكي – قاعدة للتنبؤ بتغير ادوار الدول وفقا لادوار الاقتران بين الكواكب

السيارة او التباعد بينها....فهم بناءا على هذه القاعدة تنبؤوا بحدوث ما سموه ب ((القران الاوسط))، وهو الذي يحدث – كما يقررون – حين ينتقل الكوكبان زحل, والمشتري من مثلث الى اخر وذلك في مئتين واربعين سنة فيحدث بحدوثه ((تبديل للملوك وينتقل السلطان من دولة الى اخرى ومن قوم الى اخر ومن بيت الى بيت ...))(25) وقد نفهم من ((المئتين والاربعين سنة)) هذه, في تحديدهم انما نهاية العصر العباسي الاول محسوبة منذ قيام الدولة العباسية سنة 132 هجري . (26) فذلك اذن((تبشير)) بانتقال الخلافة الى دولة جديدة, في قوم (جماعة) اخرين, وفي بيت (عائلة) غير البيت العباسي . فاية دولة جديدة هذه التي يقصدون, وفي اي قوم هي, وفي اي بيت ؟.

نجد الاجابة عن هذه الاسئلة في مكان اخر من ((الرسالة)) نفسها, سابق لهذا المكان الذي تحدثوا فيه عن هذه ((النبوءة)) . فهناك يتبأون ايضا بان الدور الفلكي سيبلغ برج العقرب, وهو الدور الذي مدته ثلاثمئة وثلاثون سنة واربعة اشهر, كما يقرر ((الاخوان))، وحينذاك يصير الحكم للدولة ((اخوان الصفاء)) التي ستكون مدة حكمها مئة وتسعا وخمسين سنة (27). كما نجد ايضاحا لهذه الاجابة في جزا اخر من ((الرسائل)) حيث ((يبشرون)) كذلك بفكرة ((دورية)) الملك والدولة، وانتقالهما في كل دور من امة الى امة (28)و من اهل بيت الى اهل بيت، ومن بلد الى اهل بلد, ثم يضعون العلامات التي تنطبق على ((جماعة اخوان الصفاء)) نفسها ومن ينضوي الى دعوتها , واصفين ((دولتهم)) المنتظرة بانها ((دولة اهل الخير)) وهي الدولة التي ((يبدأ اولها من قوم علماء حكماء وخيار فضلاء يجتمعون على راي واحد ويتفقون على مذهب واحد ودين واحد ...)) (29). ومن الخصائص التي يتميز بها اهل ((دولة الخير)) هذه ((انهم العلماء بامور الديانات العارفون باسرار النبوات, المتادبون بالرياضات الفلسفية)) .(30) فاذا كانوا كذلك, فاننا ننتظر ان نفهم منهم ان ((الدين الواحد)) الذي يتفقون عليه هو غير الدين المتبع في مجتمعهم وعصرهم . وقد كشفوا لنا هم ذلك, بوضوح, في كثير من نصوص ((الرسائل)) . فهم يعلنون انفتاحهم الكامل على الاديان والمذاهب كلها وعلى العلوم باسرها دون

تحفظ, ويدعون اصحابهم ((ان لا يعادوا علما من العلوم, او يهجروا كتابا من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لان رايا ومذهبا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها(31) , ثم يدعون كل(اخ) لهم : (فاجتهد يا اخي ان تبين الحق لكل صاحب دين ومذهب مما هو في يده, او مما هو متمسك به؛ وتكشف عنه الشبهة التي دخلت عليه..., ولا تمسك بما انت عليه من دينك ومذهبك, واطلب خيرا منه, فان وجدت فلا يسعك الوقوف على الادون, و لكن يجب عليك الاخذ بالاخير الافضل، والانتقال اليه ولا تشتغلن بذكر عيوب مذاهب الناس, ولكن انظر: هل لك مذهب بلا عيب ؟)(32). فالدعوة هنا صريحة الى موقف نقدي من الدين, كل دين ونبذ للتمسك بالموروث من الاديان والمذاهب دون استثناء . وهذا الموقف النقدي ينسحب على الشريعة الاسلامية، ولكن بطريقة حذرة محترسة تداور الامر باللجوء الى مثل ما لجا اليه الصوفية من تصنيف الشريعة الى ظاهر وباطن . فالظاهر هو الذي يصلح(للعامة) تداوي منها النفوس المريضة الضعيفة .غير ان العقول القوية تتغذى الحكمة العميقة المستمدة من الفلسفة (33). فان (الذي يصلح للخواص البالغين في الحكمة الراسخين في العلوم...) هو النظر في اسرار الدين وبواطن الامور الخفية واسرارها المكنونة...)(34) لذلك فان العبادة نوعان لا ثالث لهما احدهما العبادة الشرعية الناموسية... واما الثانية, فهي العبادة الفلسفية الالهية...(35) . وهكذا, فكل اعتراف باحكام الشريعة وقوانينها وطقوسها يصبح اعترافا ظاهريا شكليا, لانه خاضع- اخر الامر- للتاويل(الباطني)الذي يختص به (الراسخون في العلم) . وهنا كما عند الصوفية يتحدد الراسخون في العلم وفقا لمنطلق (اهل الباطن)، بحدود المفاهيم المتبعة في التاويل(الباطني)عند هؤلاء او اولئك .

نخلص من هذا الى تصور عام لاستراتيجية((اخوان الصفاء)) وهي ان (الجماعة)ينطلقون من موقع المعارضة للخلافة العباسية ولمفهوم الشريعة الذي تتاسس عليه الايدولوجية الرسمية لدولة الخلافة هذه . ولذلك تتطلع اي- جماعة اخوان الصفاء- الى بناء دولة جديدة للمجتمع تستند الى فلسفة جديدة منفتحة على كل مصدر للمعرفة، وعلى الأديان والمذاهب والفلسفات كلها، وعلى

مختلف القوميات واللغات والاجناس البشرية. لذلك نجد صورة المثل الاعلى للانسان في نظرهم وهو الانسان العالم الخبير، الفاضل الذكي, المستبصر، الفارسي النسبة، العربي الدين, الحنفي المذهب, العراقي الاداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة الملكي الأخلاق، الرباني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني(36) . ان الخطة البرنامجية لجماعة((اخوان الصفاء)) من خلال رسائلهم تتقوم بامرين اساسيين: اولا موقفها من الدولة القائمة ومن اديولوجية هذه الدولة. ثانيا, تحديد البديل عنهما اي الدولة القائمة واديولوجيتها . في داخل هذه العملية الاستراتيجية المزدوجة ذاتها: (عملية) الهدم، و(البناء) النظري حددت الجماعة في الوقت نفسه اسلوب تحركها نحو مهماتها واهدافها . نعني انها، حين كانت تضع (برنامجها) كانت في وقت واحد تنفذ عملا (تكتيكيا) دقيقا، بل لعله يصح ان نقول واعيا ايضا. ذلك اذ تدرجت بالدعوة من مرحلة الى مرحلة ،و جعلت لكل مرحلة اسلوبا خاصا يتناسب مع مستوى المدعو . بدات(الرسائل) بمرحلة المداورة والمناورة في التعامل مع المدعوين الذين هم في المرتبة الدنيا من استيعاب الدعوة, حذرة معهم كل الحذر, اخذة في الحسبان كل ما هو متكون لديهم من معتقدات موروثة ومن مرتكزات مذهبية واديولوجية اكتسبوها من طبيعة نظام الحكم الاستبدادي السائد وطبيعة العلاقات الاجتماعية المسيطرة ومن اثار تجهيل جماهير (العامة) وعزلها عن حركة التطور الثقافي التي كانت في اوج نشاطها حين ذاك . ان وعي (الجماعة) لهذا الواقع, حملهم على تضمين عملهم.

(البرنامجي) شبه نظام داخلي تنظيمي، يقضي أول كل شيء باختيار فئات الشبان للحلقات الاولى من التنظيم . ان الخطة التكتيكية في التعاون مع المدعوين الشبان تقضي بتقديم المعارف الاولية اليهم عن شؤون الدعوة وهي المعارف التي تستثير في اذهانهم الشكوك في ما يكون قد وصل اليهم من افكار عن اصول اديولوجية(رسمية)، ثم تستثير في الوقت نفسه فضولا معرفيا عندهم للاطلاع على ما هو ابعد من ذلك هكذا تتدرج اساليب التعليم متصاعدة مرحلة مرحلة مع تصاعد مراحل العمر بالمدعوين .

الهوامش

1-القفطي.جمال الدين.اخبار العلماء باخبار الحكماء.مصر 1998.ص.80 وما بعدها يقول القفطي عن اخوان الصفاء هؤلاء جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في انواع الحكمة الاولى ورتبوها مقالات ولما كتم مصنفوها اسماؤهم اختلف الناس في الذي وضعها.فكل قوم قالوا قولا بطريق الحدس والتخمين.

2-التوحيدي.ابو حيان.الامتاع والمؤانسة بيروت 2006.ص.136.

3.هذا النص نفسه اورده القفطي في المصدر السابق الهامش1

4.يذكر الشهرزوري والبيهقي هذه الاسماء مختلفة قليلا.راجع دي بور .تاريخ الفلسفة في الاسلام.القاهرة 1992.ترجمة عبد الهادي ابو ريدة.ص.125.

5.بروكلمان.كارل.تاريخ الادب العربي.القاهرة 1959، ج.3.ص.212.

6.الفاخوري حنا.الجر خليل.تاريخ الفلسفة العربية.بيروت 1995.ج1 ص.225.

7.نفس المرجع

8.رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء.ط. 1983.ج.1.ص.30.

9.الفاخوري. المرجع السابق.ص 227

10.تامر.عارف.حقيقةاخوان الصفا.بيروت1997.ص12

11.و يرجح حسين مؤنس الرسائل كتبت سنة 373ه/983م تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان-تعليقات حسين مؤنس .القاهرة 1958.ج.3ص.200.ويرى هانز هنريش شيدر في بحث له بعنوان نظرية الانسان الكامل عند المسلمين مصدرها وو تصويرها الشعري.ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي.الانسان الكامل في الاسلام.القاهرة 1993.ص80

12.القفطي .المصدر السابق.ص.12

13.بروكلمان.مرجع سابق.ص.236.بندلي جوري.تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام.دار الروائع.ص.150.عبد الله النجار.مذهب الدروز والتوحيد.القاهرة.1965.ص.48.

14.النجار.المرجع السابق ص.47.

15.قلعة الموت هي القلعة الشهيرة في سورية .تحصن فيها الحسن الصباح -518ه/1124م-الذي زعم احد فروع الحركة الاسماعيلية في بلاد الشام.

16.النجار.المرجع السابق ،ص48

17.دي بور .تاريخ الفلسفة في الاسلام.مرجع سابق .ص.125-126.بروكلمان .مرجع سابق ص236/عمر فروخ تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون بيروت ط.3 1998ص.293.

18.الفاخوري والجر.مرجع سابق.ج1 ص.227.

19.جاء في حديث التوحيدي قوله (....و كانت هذه العصابة قد تالفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبا...) التوحيدي المصدر السابق.ج.2ص4

20.نفسه.ص.6

21.رسائل اخوان الصفاء .القاهرة.1965. ج4.ص404

22.نفس المصدر.ج2.ص303.قد يكون قصد الاخوان من الاولياء واولاد الانبياء الائمة من احفاد الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ومن يعتبرهم الاخوان كممثلة الاولياء من زعماء المنظمات والحركات المعارضة للدولة في العصر العباسي

23.الرسائل .ج.3 ص.177./ج.4.ص.34

24.الرسالة الجامعة.ج.1.ص.323-324

25.بناء على هذا التحديد يكون الحادث الذي يتنبا به(الاخوان) متوقعا لديهم في سنة 372ه/982م.فاذا صح ما استنتجناه من كلامهم كان دليلا على ان (الرسائل) كتبت قبل هذه السنة بزمن ابعد من حدود السنة الواحدة.و هذا الاستنتاج قد يبطل ترجيح حسين مؤنس انها كتبت سنة 373ه/983م.

26.الرسالة الجامعة.ج2.ص.129-130

27.كلمة(الامة) هنا لا تحمل المفهوم العلمي المعاصر للامة .و انما تقتصر دلالتها في تعبير (الاخوان)على الدلالة اللغوية-الجماعة او الفريق من الجماعة

28.الرسائل .ج.1.ص.131

29.نفس المصدر.ج.4.ص.198.

30.نفسه.ص.5

31.نفسه.ص.37-38

32.نفسه .ص.46 (الرسالة الثانية والاربعون الخاصة بالاراء والديانات).

33.نفس الصفحة.

34.نفس المصدر .ص.301 وما بعدها.

35.نفس المصدر.ج.2.ص.179 ينطبق هذا تماما على ما يقوله الاخوان في موضع اخر (ان جميع ما نطق به الانبياء ...كلها حق وصدق لا مرية فيه ولكن ليس الامر كما يعتقد هؤلاء الظلمة الكفرة بل امر وراء ذلك لا يعلمه الا الله والراسخون في العلم.(الرسائل)ج.3.ص.87.

36.نفس المصدر .ح.2.ص.316.